الترجمة وأثرها في النهضة الفكرية

[تصدير معالي الأستاذ مصطفى عبد الرازق باشا لكتاب « المدخل لدراسة الفلسفة الاسلامية » ترجمة الأستاذ محمد يوسف موسى ، وسيظهر هذا الأسبوع]

لقد كانت الترجمة — وما تزال — دعامة من دعائم النهضات الفكرية والثقافية للشعوب ، وبالترجمة بدأت النهضة الثقافية في عصور الإسلام الأولى ؛ إذ أدرك الخلفاء المسلمون حاجة الأمم إلى استتمام غذائها الفكري من كل سبيل ، فتدفقت إلى النهر العربي وديان من مختلف الثقافات العالمية ، وظهر من بينها هذا اللون العربي الإسلامي على خير ما يكون الاستواء .

وعند ما نهضت أوربا من سباتها ، ونفضت الكرى عن عيونها ، رأت أن أقوم وسيلة لانتعاشها أن تنحو نحو الترجمة ، فاندفع الناقلون يترجمون أمهات الكتب اللاتينية واليونانية ، وتناولت أيديهم وأقلامهم كذلك أصول الكتب العربية التي عملت على ازدهار الثقافة الأوربية الحديثة .

وحين أسفر فجر هذه النهضة المصرية ، وأدرك رجل مصر الحديثة رأس الأسرة المالكة محمد علي باشا ، ما للترجمة من أثر فعال في إنعاش البلاد وإحيائها ، هداه نظره الثاقب إلى إرسال البعوث العلمية إلى أوربا ، لنقل معارف الأوربيين وثقافتهم إلى مصر باللغة العربية ، فأرسل ثلاثة بعوث علمية في أزمنة مختلفة ، كونت ثلاث طبقات من العلماء والأطباء والضباط والمهندسين ، فنقلوا إلى العربية مئات من الكتب في العلوم والمعارف المختلفة . ولقد كان لذلك — بلا ريب — أثره الملموس في اللغة العربية والثقافة العربية .

ومما هو قمين بالذكر أن كل المدد الذي استمده محمد علي باشا لتلك البعوث لم يكن إلا من الأزهر ، تلك الجامعة التي نشرت النور والمعرفة في أرجاء العالم الشرقي . وكان من أظهر هؤلاء الأزهريين وأبعدهم صوتاً ، المرحوم رفاعة بك الطهطاوي ، الذي عهد إليه برياسة الطلبة المبعوثين إلى باريس ، فقام بهذه المهمة خير قيام ، واتصل في فرنسا برجلين عظيمين هما السيو جومار[1] والبارون دي ساسي[2] ، فأفاد من صحبتهما خيراً كثيراً ، واستقدمه محمد علي إلى مصر في سنة ١٢٤٦ هـ وعينه مترجماً في مدرسة طرة ، ثم وكل إليه إدارة مدرسة الألسن ووضع نظام لها ؛ وكان لتلك المدرسة فضل في نبوغ جماعة من فحول المترجمين .

وكان المرحوم رفاعة بك بطبعه ميالاً إلى الترجمة ، فعرب مدة إقامته بباريس وبعد رجوعه منها كثيراً من الكتب والرسائل ؛ منها تعريب قانون التجارة ، وتعريب القانون المدني الفرنسي ، ورسالة المعادن ، والمنطق وهو ترجمة لكتاب دوموريه ، وهندسة سانسير ، وغيرها ، حتى ليقال إنه ترجم بنفسه وبإشرافه ما يربو على ستمائة كتاب .

على أن هذه النهضة التعريبية التي كان زعيمها رفاعة بك ، سرعان ما سلط على دوحتها أعاصير من جو السياسة عبثت بأصولها ، وأصابتها بما أوقف نموها واطرادها ، وهي بين الفينة والأخرى ما تزال بين الماء والذبول ، إلى أن استقر أمرها في وقتنا الحاضر بما نرجو له دوام الإطراد والتقدم والتطور ، بفضل جهود العاملين على رفع مستوى الثقافة من رجال العلم ورجال الحكم .

لقد خطر لي أن أتحدث عن رفاعة بك هذا الحديث الذي أسجل به فضله وسبقه ، عند ما أردت أن أقدم هذا السفر النفيس الذي وضعه المستشرق الفرنسي الأستاذ جوتييه ، وقام بترجمته الأستاذ الشيخ محمد يوسف موسى . لقد سرني أن يصل هذا الأستاذ الأزهري ما بين ماضي رجال الأزهر وحاضرهم في تعريب الثقافات الأوربية التي نحن في أشد الحاجة إليها وإلى من يحسن نقلها ، وأعجبني أن ينهض الأستاذ بإكمال ما بدأ به رفاعة بك . وعسى أن يكون فيما أدرك من نجاح وتوفيق في تعريب هذا الكتاب حافز له ولأمثاله من نابهي رجال الأزهر ، على إتمام تلك السلسلة

(١) Jomard (٢) Sylvestre de Sacy